



نقطة مضيئة، في وسط الأرض، دعا إليها داع الإيمان، فهوت إليها القلوب، وبذلت للوصول إليها النغوس كل غال عليها ونفيس، وتهافتت إلى ساحتها الأجساد، ساعية جادة، باكية خاشعة، معظمة مكبرة، تلبي النداء بالقول والعمل والبذل والعطاء والجهد والمشقة.. لكنه ينزل عليها برباً وسلاماً وحباً وتعظيمياً وتكريماً.

الإسلام ياق.. والقرآن ياق.. والملة الحنيفة سائدة وسائرة، مهما حاربوه ومهما حاصروه، تلكم هي الرسالة التي يعلنها ذلك المؤتمر الإيماني الهاذر.. إنه ذات الموكب الذي أمر به النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم منذ قرون عديدة، يتكرر بذاته، تبعاً لما أمر وشرع وبيّن وعلم..

كما كان أصحابه الأنقياء الأشراف الأطهار يحيطون به، يحفظون أمانة الرسالة، ويضططعون بالتبعية الثقيلة، حتى أوصلواه إلينا عبر القرون سليمة نقية، ها هو ذات السبيل الأبيض، والفيض النوراني المتهادي، يحمل معه أرقى حملة تطهير عالمية من الذنب والغفلة والتقصير في حق الله، منيبين إليه، ساعين إلى مرضاته، رجاؤهم المغفرة والرضوان لقد أعلن النبي صلى الله عليه وسلم من على عرفة في حجة الوداع، الإعلان العالمي الإسلامي الأكبر لحقوق الإنسان الحقة، لكنه إعلان صادق مصدق، يؤيده الوحي وتحيطه الحكمة الربانية التي لا يأتينها نقص ولا يعترفها خلل.

لقد أعلن أن الناس كلهم سواء، لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتفوى، ميزاناً نقياً طاهراً، لا نزاع فيه بمال ولا بمكانة ولا

بلون، ولا بعرق، بل بما يقر في القلوب حيث يستوی فيه الناس أجمعون، "أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على أعمامي إلا بالقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد"

صحيح مسلم

كما أعلن أن الأمان مكفول لكل المؤمنين، وأن الله قد أمن أهل الإيمان والتوحيد، أمنا يبلغ دنياهم وآخرهم : "أيها الناس إن دماءكم وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، إنما المؤمنون إخوة، لا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد" صحيح مسلم

والناظر المتذمّر لتلك الشعيرة العظيمة وذلك المؤتمر العظيم، ليدرك أنه إنما شرع لتحقّق منه مقاصد عليا، ومرادات سامية راقية، تحفظ جناب التوحيد، وتجمع الشمل، وتثبت قلوب المؤمنين على الإيمان.

مقصده الأول وغايته العليا تحقيق التوحيد وإعلاء شأن العبودية، ولما سمع التلبية الصحابي جابر بن عبد الله قال : "أهل بالتوحيد" ..

فابتدأ بشعار التوحيد في هذا المؤتمر الأكبر وكأنه إذن بأنه العلامة الأولى والراية المتقدمة في تلك العبادة الربانية الإيمانية العظيمة والآيات التي تحكي ابتداء البناء، تحكي بقضاء الله أن يقوم البيت على التوحيد ونبذ الشرك كأول مقومات له: "وإذ بوانا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود" ، والمفسرون على أن تطهير البيت إنما هو تطهير من الشرك والوثن، وتخلصه للتوحيد والعبودية التامة كما وصف الله سبحانه الحجيج الملبين للنداء المستجبيين لأمر الله، القادمين إلى البيت العتيق في الآيات التالىات بأنهم : "حنفاء لله غير مشركين به"

لذلك كان أول ما أرسل به الرسول صلى الله عليه وسلم أبا بكر ثم علياً إلى مكة "ألا حج بعد اليوم مشرك ولا يطوف بالبيت عريان" أخرجه البخاري

كما ارتبط التوحيد بمناسك الحج، فجاء الذبح يشترط اسم الله عليه، إثباتاً لربوبيته سبحانه إذ هو الذي رزقهم تلك الأنعام وإقراراً لألوهيته وتسليم العبادة - التي هي هنا الذبح والنسك - له سبحانه: "ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإنكم إله واحد فله أسلموا وبشر المختفين.."

وال السنن في الحج تشي بذلك المعنى بوضوح، فالقراءة في ركعتي الطواف يسن أن تكون بالإخلاص والكافرون، والذكر أثناء السعي يسن أن يكون التكبير والتهليل والتوحيد، وفي يوم عرفة قال صلى الله عليه وسلم: "خير الدعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من بعدي لا إله إلا الله" أخرجه الترمذى.

كذا أمر بالإخلاص التام أثناء الحج أمراً متتابعاً على كل وجه، فالسلوك كله لله والنسك كله لله والنية ملخصة له سبحانه لذلك لما أراد صلى الله عليه وسلم أن يهل قال: "لبيك اللهم حجة لا رباء فيها ولا سمعة" أخرجه ابن ماجه.

قال ابن رجب : "ومما يجب اجتنابه على الحاج وبه يتم بر حجه ألا يقصد بحجه رباء ولا سمعة ولا مباهاة، ولا فخرأ ولا خيلاء، ولا يقصد به إلا وجه الله ورضوانه، ويتواضع في حجه، ويستكين ويخشى لربه"

ويأتي مقصد تعظيم شعائر الله وحرماته كمقصد مرجو مدعو إليه من آداء تلك الشعيرة العظيمة، فقد بينت الآيات ذلك المعنى بينما القرآن يتحدث عن تلك الفريضة وفي سياق بيان شأنها وقدرها والمقصود منها، فقال سبحانه: "ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه" وقال سبحانه: "ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب"

وحرمات الله كل ما له حرمة شرعية، وأمر باحترامه شرعاً سواءً أكانت عبادة أو منسكاً أو حرماً، وتعظيمها هو حبها وإجلالها وآداؤها على الوجه الذي أمر به مقبلاً جاداً مستحضرأً للإخلاص والتقوى، وشعائر الله هي أعلام الدين الظاهرة ومنها مناسك الحج والبدن والهدايا، وتعظيمها القيام بحقها كما ينبغي.

وتعظيم الشعائر والحرمات لا يصدر إلا من القلوب السليمة النية المرية وجه الله ورضاه وعاقبة الخير، المعظمة له سبحانه الموقرة لجلاله، قال سبحانه "ذلِكَ مَنْ يَعْظِمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَىِ الْقُلُوبِ" يقول ابن القيم: "روح العبادة هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلَّ أحدهما عن الآخر فسدت".

إن المقصود استحضار القلب وانتفاء الإخلاص وإرادة وجه الله سبحانه وتعظيم أمره ونبيه وأداء العبادة على وجهها ما يمكن منه استلزم التقوى والعمل الصالح وصحة أداء النسك، قال سبحانه : "لَئِنْ يَتَّالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُ التَّقْوَىِ مِنْكُمْ" .

كما يأتي مقصد الطاعة والانقياد والاستسلام ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم كمقصد ظاهر كذلك من مقاصد الحج، فالحج يأتي المناسك ويزورها وينتقل بينها، وقد لا تبين له منها الحكم والمعانى، فيبقى له دوماً معنى الانقياد والعبودية والتسليم، والاقتداء بنبيه الأكرم صلى الله عليه وسلم، فهو يطوف ويرمي ويذبح ويحلق وإمامه في ذلك نبيه صلى الله عليه وسلم، فيحج كما حج، ويقف حيث وقف، ويسلك سلوكه ويدعو دعاءه ويدرك ذكره الذي علمه.

والروايات الصحيحة تدلنا على مدى اهتمام الصحابة رضوان الله عليهم بالاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، فبمجرد أن علموا أنه خرج حاجاً «فلم يبق أحد يقدر أن يأتي راكباً، أو راجلاً، إلا قدِّم» رواه النسائي، «كَلَمْ يَلْتَمِسْ أَنْ يَأْتِمْ بِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَيَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِهِ» رواه مسلم.

كما أنه -صلى الله عليه وسلم- ظل يؤكد على اتباعه في مناسك الحج والتعلم منه قائلاً : «لَتَأْخُذُوا مَنَاسِكُكُمْ؛ فَإِنِّي لَا أُدْرِي لَعَلَّيْ لَا أَحْجُ بَعْدَ حِجْتِي هَذِهِ» رواه مسلم.

يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه : «فَنَظَرَتْ إِلَى مَدْبُرِي بَيْنِ يَدِيهِ مِنْ رَاكِبٍ، وَمَاشٍ، وَعَنْ يَمِينِهِ مِثْلُ ذَلِكِ، وَعَنْ يَسَارِهِ مِثْلُ ذَلِكِ، وَمِنْ خَلْفِهِ مِثْلُ ذَلِكِ، وَرَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَيْنَ أَظْهَرِنَا، وَعَلَيْهِ يَنْزَلُ الْقُرْآنُ، وَهُوَ يَعْرِفُ تَأْوِيلَهِ، وَمَا عَمِلَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ عَمِلْنَا بِهِ» رواه مسلم.

ولم تكن كلمات عمر بن الخطاب أمام الحجر الاسود إلا تطبيقاً لمتابعته للنبي صلى الله عليه وسلم إذ قال "إني لأعلم أنك حجر لاتنفع ولا تضر ولو لا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك" متفق عليه.

قال الحافظ ابن حجر : «وَفِي قَوْلِ عُمَرَ هَذَا، التَّسْلِيمُ لِلشَّارِعِ فِي أُمُورِ الدِّينِ، وَحُسْنُ الْإِتَّابَعِ فِيمَا لَمْ يَكْشُفْ عَنْ مَعَانِيهَا، وَهُوَ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ فِي اتِّبَاعِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَيَمَا يَفْعُلُهُ، وَلَوْ لَمْ يَعْلَمْ الْحِكْمَةُ فِيهِ» الفتح.

وكان عبد الله بن عمر إذا استلم الحجر قال : "اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك وسنة نبيك" أخرجه الطبراني.

ويقول ابن القيم: "إِنْ مِنْ الْعِبُودِيَّةِ وَإِيمَانِ بِاللَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ عَلَى التَّسْلِيمِ، وَعَدْمِ الْأَسْئَلَةِ عَنْ تَفَاصِيلِ الْحِكْمَةِ فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالشَّرَائِعِ، وَلَهُذَا لَمْ يَحْكِمْ اللَّهُ -سَبَّحَهُ- عَنْ أَمَّةِ نَبِيٍّ صَدَقَتْ نَبِيَّهَا وَآمَنَتْ بِمَا جَاءَ، أَنَّهَا سَأَلَتْهُ عَنْ تَفَاصِيلِ الْحِكْمَةِ فِيمَا أَمْرَهَا بِهِ، وَنَهَاهَا عَنْهُ، وَبَلَغَهَا عَنْ رَبِّهَا، بَلْ انْقَادَتْ، وَسَلَمَتْ، وَأَذْعَنَتْ" (الصواعق المرسلة).

والتنبيه والإنابة والتقوى وتطهير النفس من مساوئها وأدراها مقصد آخر من مقاصد الحج، قال سبحانه:

"فمن فرض فيهن الحج فلا رفت ولا فسوق ولا جدال في الحج".

قال الجصاص في أحكام القرآن: "جميع ما ذكر من هذه المعاني عن المتقدمين جائز أن يكون مراد الله تعالى، فيكون المحرم منهاً عن السباب والمماراة في أشهر الحج وفي غير ذلك وعن الفسوق وسائر المعاصي، فتضمنت الآية الأمر بحفظ اللسان والفرج عن كل ما هو محظور من الفسوق والمعاصي.

وهي وإن كانت محظورة قبل الإحرام، فإن الله نصَّ على حظرها في الإحرام تعظيمًا لحرمة الإحرام، ولأن المعاصي في حال الإحرام أعظم وأكبر عقاباً من غيرها"

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً : "من حج فلم يرث، ولم يفسق، خرج من ذنبه كيوم ولدته أمه" متفق عليه وقد جعل الحسن البصري من علامات قبول الحج : أن يرجع زاهداً في الدنيا، راغباً في الآخرة.

ومما يدل على ارتباط التزكية بالتطهير أنه سبحانه لما نهاه عن إتيان القبيح حثهم على فعل الجميل فقال سبحانه: "وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى"

ثم أمروا أن يرفعوا ذكر الله سبحانه في كل وقت، فأمروا بالتلبية من بدايات الإحرام وطوال أيامه، وما تلبث التلبية أن تتوقف حتى يبدأ ذكر آخر هو التكبير والتهليل، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله" أخرجه أحمد والترمذى وأبو داود.

المسلم

المصادر: